المحاضرة السابعة بعنوان

التشريع في عصر صغار الصحابة وكبار التابعين

التشريع في عصر صغار الصحابة وكبار التابعين

يبدأ هذا العصر من بداية تنصيب معاوية بن أبي سفيان خليفة سنة (41هـ) وينتهي في أوائل القرن الثاني الهجري، أي قبيل سقوط الدولة الأموية.

وهذا العصر يعد حلقة مليئة بالأحداث، والمشكلات، والخلافات الفقهية والسياسية والاجتماعية.

وقد كان للسياسة دور مهم في هذا العصر، كما كان للأحداث السياسية دور بارز وأثر مهم في الحركة العامة للمجتمع ومنها التشريع.

إن هذا العصر أفرز فرقاً وطوائف لم تكن مألوفة وكان لكل فرقة آراؤها وأفكارها كما شهد نشأة المدارس الفقهية وكان لهذا العصر خصائصه التي تميز بها.

وسوف نخص أبرز النقاط التي ينبغي دراستها عن هذا العصر بمبحث مستقل فيما يأتي.

الحالة السياسية في هذا العصر

انقضى الجزء الأكبر من عصر الخلفاء الراشدين وحال الأمة مستقيم، وإن كانت هناك فئة كانت تتَّقب نشر الخلاف وبث الفرقة وتفريق الكلمة، لكن منع ذلك قوة أبي بكر وهيبة عمر -رضوان الله عليهما- غير أنه بتولي عثمان رضي الله عنه الخلافة نهضت هذه الفئة، وجرؤت على الخروج والعمل ظاهراً. وكانت البداية عندما ادعى بعضهم إيثار عثمان رضي الله عنه لأقاربه من بني أمية، فاتهموه بأنه نصَّب علي الأمصار ولاة من بني أمية وحدهم، وأنهم هم أهل الرأي والمشورة، فسخط هذا البعض على عثمان، وانتهت هذه الفتنة حين قتل عثمان سنة (35هـ).

ثم بويع علي بن أبي طالب بالخلافة، لكن البعض تردد في البيعة، والبعض الآخر لم يرض تولي علي بن أبي طالب رضي الله عنه الخلافة، ومنهم معاوية بن أبي سفيان الذي أعد العدة لإسقاط الخليفة، ومعه فئة تطالب بالثأر من قتلة عثمان.

واشتد النزاع، وتوالت الأحداث، وكانت موقعة (الجمل) سنة (36هـ) بين علي وجنده من جهة ومعاوية وبين أمية وعائشة وطلحة والزبير من جهة أخرى وانتهت بنصرة علي رضي الله عنه وقتل طلحة والزبير.

وهدأت الأجواء قليلاً، وفي سنة (37هـ) كانت موقعة (صفين) حيث التقي فيها علي وجيشه، ومعاوية وجيشه، ودارت المعركة، ولما أحس معاوية بالهزيمة طلب التحكيم برفع المصاحف على أسنة الرماح، وقبلت طائفة من جيش علي التحكيم، ورفضت الأخرى حيث رأت أن تلك حيلة لجأ إليها معاوية للحصول على هدنة يكسب بها المعركة، ولكن الإمام علي رضي الله عنه قبل التحكيم حتى تحقن الدماء، وتحفظ الوحدة، وحدث التحكيم بالفعل، وخلع الحكمان (أبو موسى الأشعري، وعمرو بن العاص) علياً من الخلافة، ولم يرض علي رضي الله عنه بهذه النتيجة.

ومن هنا انقسم جيش علي رضي الله عنه إلى ثلاث فرق:

1. فريق رفضوا التحكيم، وطلبوا من علي رضي الله عنه أن يعلن خطأه في قبول التحكيم، فلما رفض القبول برأيهم، خرجوا عليه، وناصبوه العداء، وعدوه خائن اً للأمانة، وهؤلاء سموا بـ(الخوارج).

2. وفريق تشيعوا لعلي وناصروه، ورضوا بقبوله التحكيم، ورأوا الخلافة حقاً لعلي وأهل بيته، وهؤلاء سُموا بـ(الشيعة).
3. وفريق لم تعجبه آراء الفريقين، ولم يقبل بما عندهم من مبادئ وهؤلاء عرفوا بـ(أهل السنة والجماعة).

ومنذ هذا الانقسام تصدعت الأمة، ورجع الإمام علي إلى الكوفة ومعه بعض جيشه حتى قتل بها سنة (40هـ) على يد الخارجي عبدالرحمن بن ملْجم، وتولى ابنه الحسن رضي الله عنه الخلافة، وبقيت خلافته قرابة ستة أشهر، ثم سلم بعدها الخلافة لمعاوية سنة (41هـ) مؤثراً في ذلك حقن دماء المسلمين، وقد سمى هذا العام بـ(عام الجماعة) لاجتماع المسلمين على خلافة معاوية، عدا الخوارج.

تولى معاوية الخلافة ووجد سخطاً متزايداً وخروجاً عليه في جهات كثيره، وبعد موته ظهرت منازعة الشيعة لابنه (يزيد) واستشهد الحسين بن علي بكربلاء وبعد استشهاده اشتدت الفرقة.

وجاء عبدالملك بن مروان على رأس الدولة الأموية، واستعمل العنف على الخارجين على بني أمية، وبعد عبدالملك جاء ابنه الوليد، واتسعت الفتوحات الإسلامية، حتى ازدهرت الدولة الإسلامية في عهده، ثم جاء سليمان بن عبدالملك الذي استخلف بعده الإمام الزاهد والخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز الذي أحيا الخلافة الراشدة، ورد المظالم، وأقام العدل، ثم جاء بعده يزيد بن عبدالملك، ثم هشام بن عبدالملك، فساءت حال الدولة الأموية، وكانت الدعوة السرية لبني عباس قد قويت مع ضعف الدولة الأموية.

هذا هو مجمل الجانب السياسي في ذلك الدور ونخلص منه بالأمور التالية:

- أولاً: انشغال كثير من الناس بالأمور السياسية حيث انقسم المسلمون إلى ثلاث فرق.
- ثانياً: تفرغ الحكام للأمور السياسية فقط، وبعدهم عن العلماء والعلم.
- ثالثاً: كثرة الفتوحات الإسلامية حتى شملت أجزاء واسعة من آسيا و أوربا وأفريقيا.
- رابعاً: موت كثير من علماء الصحابة، الذين كانت الأمة في مسيس الحاجة إليهم وإلى أعمالهم.

<u>ظهور الفرق السياسية:</u>

ذكرنا أن المسلمين في هذا العصر انقسموا إلى فرق وطوائف متعددة، لعل أشهرها ثلاث فرق كان لكل فرقة منها مذهبها الخاص به في السياسة وفي العقيدة وفي الفقه.

<u>وهذه لمحة عن كل فرقة وما تميزت به.</u>

<u>(أولًا) الخوارج:</u>

الخوارج طائفة خرجت من جيش علي رضي الله عنه عقب قبوله التحكيم مع معاوية بن أبي سفيان في موقعة (صفين)، حيث طلبوا عدم قبول التحكيم، وأن يقر على نفسه بالخطأ، فرفض علي رضي الله عنه الاستجابة لهم.

وكان أساس خطأ التحكيم عندهم أن الحكم في هذا الأمر واضح جلي، والتحكيم يتضمن شك كل فريق أيهما المحق، وهذا الشك لا يصح في نظرهم، لأنهم إنما حاربوا وهم مؤمنون أن الحق معهم، ولذلك صاغوا مبدأهم في الجملة الآتية: (لا حكم إلا لله)، فسرت هذه العبارة سير البرق، حتى تجمع حولها كل من يعتنق هذا الرأي، وبهذا نشأت طائفة الخوارج.

وقد سموا بالخوارج لخروجهم على علي رضي الله عنه كما هو واضح.

وقد سموا بأسماء أخرى أيضاً، فقد سموا بـ(المحكِّمة) بكسر الكاف لأنهم اتخذوا من قولهم لعلي وصحبه: (لا حكم إلا الله) شعاراً لهم، وسموا بـ(المارقة) أخذاً من قول النبي ﷺ في سلفهم ذي الخويصرة: "إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَءُونَ

الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنْ الرَّمِيَّةِ يَقْتلونَ أَهْلَ الْإِسْلَام وَيَدَعونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَّنهم قَتْلَ عَاد).

وسموا بـ(الحرورية) نسبة إلى قرية تسمى (حروراء) خرجوا إليها. وقد حاربهم علي رضي الله عنه وهزمهم شر هزيمة في موقعة(النهروان)، وقتل منهم الكثير، فكادوا له، ودبروا مؤامرة لقتله، فقتله الخارجي عبدالرحمن بن ملجم.

ولا يخفى أن فرقة (الخوارج) تشكلت من العرب الخلص الذين ألفوا الخشونة والغلظة؛ لذلك كانت لهم آراء منحرفة، وأخذوا خصومهم بالعنف تارة، وبطلاقة اللسان، وفصاحة البيان تارة أخرى، حتى أصبحوا يشكلون شوكة في جنب دولة بني أمية.

وقد تفرعوا في حربهم ضد الدولة الأموية إلى مجموعتين: إحداهما بالعراق، والأخرى بجزيرة العرب، وفي عهد الدولة العباسية ضعفت شوكتهم وانحط قوادهم.

أهم مبادئ الخوارج:

للخوارج آراء وأفكار اشتهروا بها في السياسة والعقيدة والفقه، ونذكرها بإيجاز:

1. <u>في السياسة:</u>

يرى الخوارج أن الخلافة لابد أن تتم باختيار المسلمين، ولا يشترط أن يكون الخليفة قرشياً ويرون أنه إذا تم اختيار الخليفة فلا يصح له أن يتنازل أو يحكّم أحداً، ويجب أن يخضع خضوعاً تاماً لأمر الله، وإلا يعزل، فإن لم يقبل وجب قتله.

2. <u>في العقيدة:</u>

أهم ما يقرره الخوارج في الجانب العقدي: أن الإيمان المطلق يتناول جميع ما أمر به الله ورسوله ﷺ وليس الإيمان هو الاعتقاد وحده فمتى ذهب بعض ذلك بطل الإيمان، فيلزم عندهم تكفير أهل الذنوب، ولم يفرقوا بين ذنب وآخر؛ ولهذا كفّروا علياً رضي الله عنه حين قبل التحكيم.

3. <u>في الفقه وأصوله:</u>

للخوارج آراء أصولية وفقهية خالفوا فيها غيرهم.

<u>ففي الأصول</u>: أنكروا بعض مصادر التشريع؛ كالقياس والإجماع.

<u>أما في الفقه</u>: فمن أبرز ما قالوا به وخالفوا فيه غيرهم:

أ- أن الزاني المحصن لا يرجم؛ لعدم ثبوت الرجم؛ في كتاب الله تعالى، وهم في ذلك يخالفون السنة الصريحة القولية والفعلية، حيث رجم رسول الله ﷺ ماعزاً والغامدية ورجم الخلفاء بعده، وقد أجمع السلف على رجم الزاني المحصن.
ب- أنه لا يحرم من الرضاع سوى الأم المرضعة، والأخت بالرضاع، وكل رضاع سوى الأم والأخت لا يحرم، وهم في ذلك يخالفون مدلول السنة الصحيحة: "يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب".
ج- أنه يحل نكاح المرأة على عمتها، وخالتها، لأن الآية: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ

hadeel alnafea

أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)النساء:23 لم تذكر العمة والخالة، وهم في ذلك يخالفون مدلول السنة الصحيحة: "لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها".

وغير ذلك من المسائل التي خالفوا فيها إجماع المسلمين.

سلوكهم في الدين والحياة:

مما لاشك فيه أن الخوارج اشتهروا بالتشدد في سلوكهم في الحياة وفي أمور الدين، وهذه بعض سلوكياتهم:

1. تشددهم في العبادة: فقد كانوا أهل صوم وصلاة، غير مراعين للتيسير والتخفيف في مجال العبادة.
2. غلظتهم في المعاملة: وبخاصة مع المخالفين لهم، فكل من يخالف مبادئهم يعد كافراً يجب قتله، حتى كان بعضهم يقتل الشيوخ والنساء والصبيان.
3. احتقارهم لكل من لم يكن من جنسهم.
4. إخلاصهم لمعتقداتهم إلا أنهم لم يثبت عنهم الكذب في الحديث.
5. كان لهم أدبهم الخاص، فقد امتازوا بالقوة في اللفظ، وفصاحة الأسلوب.

أشهر فرق الخوارج:

الخوارج فرق كثيرة، ذكر الشهرستاني منها اثنتين وعشرين فرقة يخالف بعضها بعضاً في المعتقد والفكر والعمل، إلا أنها كلها تتفق في أمرين؛ هما: الخلافة، وأن العمل جزء من الإيمان.

وفيما يلي عرض لأشهر فرق الخوارج:

1. الأزارقة: أتباع نافع بن الأزرق من بني حنيفة، فهو أكبر فقهائهم، وصاحب هذه الفرقة، تولى الإمارة بعده قَطَرِيُّ بن الفُجاءَة الذي هزمه المهلب بن أبي صفرة وقتله بأرض فارس.
   - ومبادئ هذه الفرقة
     - القول بتكفير علي رضي الله عنه وتكفير من لم يقاتل معهم.
     - وإباحة قتل الشيوخ والنساء والأطفال.
     - وإسقاط الرجم عن الزاني المحصن.
     - وإسقاط حد القذف، وأن التَقِيَّة غير جائزة وغير ذلك من المعتقدات الضالة المضلة.
2. النجدات: أتباع نجدة بن عامر، ومعتقد هذه الفرقة أنها ترى أن الدين أمران:

أ- معرفة الله.

ب- ومعرفة رسوله ﷺ، وما عدا ذلك فالإنسان يعذر بجهله إلى أن تقوم عليه الحجة، وعلى هذا فإن من أداه اجتهاده - بناء على فكرهم هذا- إلى تحليل حرام أو تحريم حلال فهو معذور، وأحلوا التَقِيَّة.

3. الصُفرية: أتباع زياد بن الأصفر، وهم لا يختلفون في مبادئهم وتعاليمهم عن الأزارقة.
4. الإباضية: أتباع عبدالله بن إباض التميمي، وهذه الفرقة أقل فرق الخوارج غلوّاً في الحكم على مخالفيهم، وهم أبعد الخوارج عن الشطط، ونزعتم تميل إلى المسالمة مع مخالفيهم ولهم فقه جديد ولهم وجود اليوم في ساحل عمان، والمغرب، وزنجبار.

(ثانياً) الشيعة:

الشيعة: هم الذين شايعوا علياً بن أبي طالب رضي الله عنه وناصروه، وقالوا بإمامته وخلافته بعد النبي ﷺ بالنص، واعتقدوا ذلك عقيدة وقالوا بالإمامة لأبنائه من بعده لا تخرج منهم إلا بظلم.

وقد نبتت البذرة الأولى للشيعة منذ اختيار الخليفة بعد وفاة رسول الله ﷺ حيث رأوا أن أهل البيت أولى بها، وأولهم علي لسبقه وعلمه وجهاده وزواجه من فاطمة رضي الله عنها.

وأكثر الشيعة كانوا بالعراق ومن العراق، وهي تعد فرقة سياسية ناهضت خلافة بني أمية، واعتبروهم غاصبين ظالمين.

أهم مبادئ الشيعة:

1. في السياسة:

رأوا أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوّض إلى نظر الأمة، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفالها ولا تفويضها إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر.

وقالوا: إن علياً رضي الله عنه هو الذي عينه رسول الله ﷺ بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم.

وهذا الذي يقولونه لا يعرفه جهابذة أهل السنة ولا نقلة الشريعة، بل أكثره موضوع مطعون في طريقه.

2. في العقيدة:

أ- إن علياً رضي الله عنه أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة وقد وصل بعضهم إلى حد أن جعلوه في مرتبة الألوهية.

ب- حصروا الإمامة في علي رضي الله عنه باعتبار أنه في معتقدهم وصي النبي ﷺ، وهم يرتبون على هذا القول نتيجة هي مقصودهم من فكرة الخلافة، وهي أنها في غير علي رضي الله عنه مرفوضة ومن هنا سموا بـ (الرافضة).

ج- قالوا بعصمة أئمتهم؛ فالإمام عندهم معصوم من الصغائر والكبائر وجوباً؛ لأنه ليس شخصاً عادياً بل هو فوق الناس، وهو أكبر معلم، لما أطلع عليه من أسرار الكون؛ وكل إمام يورث هذه الثروة لمن بعده.

3. في الفقه وأصوله:

للشيعة آراء وأفكار أصولية وفقهية خالفوا فيها غيرهم، ومن أهمها ما يلي:

ففي الأصول: اعتمدوا في أصول فقههم على الكتاب والسنة فقط، وهم في أخذهم بكتاب الله ينظرون إلى ما كان وفق تفسير أئمتهم دون النظر إلى صريح الأحكام المأخوذة من منطوق النصوص، وفي أخذهم بالسنة لا يقبلون إلا ما كان مروياً عن طريق أئمتهم فقط، ورفضوا الأخذ بالقياس ولم يعدوه مصدراً تشريعياً، لأنه مصدر مقيد بالاجتهاد، وهم لا يعملون إلا برأي أئمتهم، ورفضوا الأخذ بالإجماع كمصدر تشريعي لأنه يقتضي الاعتراف ضمناً بأقوال غير الشيعة من الصحابة والتابعين وهم لا يعترفون بأولئك في الدين.

أما في الفقه فمن أبرز ما قالوا به وخالفوا فيه غيرهم:

أ- منع وقوع الطلاق ما لم يكن أمام شاهدين، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ)الطلاق:2، وهم في ذلك يخالفون إجماع العلماء حيث إن الطلاق يقع من غير حاجة إلى شهود؛ لأن الزواج عقد فلابد فيه من الشهود، أما الطلاق فهو إنهاء عقد رتبه الشارع من طرف واحد وهو الزوج فلا يحتاج إلى شهود، ولم يؤثر عن الرسول ﷺ ولا عن أصحابه اشتراط الشهادة في وقوع الطلاق، والآية التي استدل بها الشيعة إنما هي للاحتياط على سبيل الاستحباب.

ب- جواز نكاح المتعة: ودليلهم في ذلك قوله تعالى: (فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ)النساء:24، والأجر لا يكون إلا عن مدة مؤقتة، وهذا هو نكاح المتعة، وهذا الحكم عندهم لم ينسخ.

أما علماء أهل السنة فالآية عندهم واردة في النكاح الشرعي الصحيح والمعهود، والمراد بالاستمتاع التمتع الكامل بالدخول بالزوجة في نكاح مشروع، وأما الأجور فالمراد بها في الآية ما يجب للزوجة من مهر كامل إذا دخل بها

الزوج، والأجر من أسماء المهر، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم في قوله سبحانه: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ)الأحزاب:50 أي مهورهن، وقوله سبحانه: (فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ)النساء:25، والمراد المهور، وعلى ذلك انعقد إجماع الأمة.

ج- حرمة زواج المسلم من الكتابية سواء أكانت يهودية أم نصرانية: ودليلهم قوله سبحانه: (وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ)الممتحنة:10؛ قالوا: والمراد الكافرات، ومنهن الكتابيات؛ فلا يحل لمسلم نكاح الكتابية وهم في ذلك يخالفون جمهور المسلمين؛ لأن هذه الآية التي استدلوا بها محمولة على غير الكتابيات، بدليل الإباحة في قوله سبحانه: (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ)المائدة:5.

د- قالوا بعدم توريث النساء في كثير من الحقوق، حيث لا يورثون المرأة إلا في الأشياء المنقولة فقط، أما العقار من دور وأرض فلا ترث المرأة منه شيئاً.

والأمثلة التي خالف فيها الشيعة جمهور المسلمين كثيرة.

أشهر فرق الشيعة:

للشيعة فرق وطوائف كثيرة تختلف فيما بينها في كثير من الأحكام ونكتفي بالحديث عن فرقتين من فرق الشيعة هما: الزيدية و الإمامية.

1. الزيدية:

هذه الفرقة تنسب إلى الإمام زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وهي تبني علمها وعملها على الأحاديث المروية عن طريق الإمام زيد الذي يعد أوسع الشيعة علماً وأصحهم عقيدة وأعدلهم في مسألة الإمامة.

وتعد الشيعة الزيدية أقرب الفرق إلى أهل السنة والجماعة، ولا يزال معظمهم في اليمن إلى اليوم.

2. الإمامية:

هذه الفرقة سميت بهذا الاسم لأن أهم عقائد معتنقيها أسست حول الإمام، فهم الذين حصروا الإمامة في علي رضي الله عنه وفي أولاده من فاطمة رضي الله عنها من بعده وهم الذين يقولون بأن الإمام الثاني عشر وهو (محمد المهدي، المهدي المنتظر) مختفٍ بجبل (رضوى) وبأنه لم يمت، وسيخرج في آخر الزمان. وهم الذين رفضوا إمامة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

<u>ومن أشهر فرق الإمامية</u>

أ- الإمامية الإثنا عشرية: سموا بذلك لأنهم يسلسلون أئمتهم إلى اثني عشر إماماً.
ب- الإسماعيلية: سموا بذلك لأنهم يقفون بأئمتهم عند إسماعيل بن جعفر الصادق.

والإسماعيلية أكثر فرق الشيعة سخطاً على غيرهم، وأكثرهم تحريفاً للنصوص، ولهم أفكار غريبة ينسبونها للإسلام، وهو منها براء، ولهذه الفرقة أتباع في بعض الدول ولكنهم قلة.

(ثالثاً) أهل السنة والجماعة

يراد بها تلك الفئة التي استقت منهجها من القرآن والسنة، والتي رفضت الانحياز إلى الخوارج أو إلى الشيعة، وأهل السنة والجماعة تمسكوا بمدلول نصوص الشرع دون التأثر بالتيارات التي هبت رياحها بعد انتهاء الخلافة الرشيدة.

ومنهج أهل السنة والجماعة في العقيدة هو السير على الكتاب والسنة، يبنون أحكام الشرع منهما، لا غلو كما هو الحال بالنسبة للخوارج ولا القول في الدين بما لم يرد فهي نص معتبر كما هو الحال بالنسبة للشيعة.

ومنهجهم في السياسة قائم على أن الخلافة ليست وصية لأحد، بل الإمامة في المسلمين جميعاً لمن ارتآه المسلمون وأن الصحابة كلهم لهم فضل الصحبة، ولا يجوز الطعن في أحدهم.

ومنهجهم في الفروع الفقهية قائم على الأخذ بمدلولات النصوص، وما ترشد إليه، ويعملون بأدلة الشرع المتفق عليها من الكتاب والسنة، والإجماع، والأدلة الأخرى؛ كالقياس، والاستحسان، والعرف، والمصالح المرسلة، وسد الذرائع، وغير ذلك مما يتفق مع مقاصد الشرع.

تفرق العلماء في الأمصار

لم يسر الأمويون على سنة الخلفاء الراشدين في العلم والعمل، حيث كان شاغلهم الأكبر هو الأمور السياسية، وما يتعلق بها، وبكيان دولتهم، وتوسيع رقعتها.

وكاف من نتيجة ذلك أن وقعت النفرة في نفوس العلماء من حياة بني أمية السياسية، فخرجوا بعيداً عن مقر الخلافة، وتفرقوا في الأمصار المفتوحة، ومنهم من عاد إلى موطنه الأصلي مثل مكة والمدينة.

وبتفرق العلماء في الأمصار نشأت حركة علمية في كل قطر نزلوه فتأثرت بهم البلاد التي نزلوها، واصطبغت بعلمهم وتقيد الطلاب بمنهجهم.

ومن البديهي أن تزدهر الحركة العلمية في هذه الأقطار؛ لأنها أكثر أمناً وأوفر عمراناً، ونذكر من هذه الأقاليم التي نزلها الصحابة والتابعون والتي ازدهرت فيها الحركة العلمية **ما يلي**:

- مَنْ كان من العلماء في مكة:

كان في مكة معاذ بن جبل رضي الله عنه، ولم يخرج منها لما استوطنها، بل بقى يعلم أهلها ويقرئهم القرآن وكان أبرز الصحابة بها.

وقد انتقل إلى مكة عبد الله بن عباس رضي الله عنه ومكث فيها يعلم التفسير، والحديث، والفقه، والأدب.

وقد انتقل إلى مكة من التابعين: مجاهد بن جبر، وعطاء بن أبي رباح، وأبو الزبير مسلم بن خالد، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس بن كيسان، وغيرهم ممن تخرج على يدي ابن عباس ومعاذ.

- مَنْ كان من العلماء في المدينة:

<u>من الصحابة</u>**:** عائشة أم المؤمنين، وعبدالله بن عمر، وزيد بن ثابت، وعبدالرحمن بن عوف، وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ.

<u>ومن التابعين: فقهاء المدينة السبعة</u>: سعيد بن المسيب، وأبوبكر بن عبدالرحمن بن الحارث، وسليمان بن يسار، وعروة بن الزبير، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، وخارجة بن زيد بن ثابت، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وغيرهم ممن أخذ العلم عن الصحابة الذين كانوا في المدينة.

hadeel alnafea

- مَنْ العلماء من كان في الكوفة:

من الصحابة: عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ويعد معلم الكوفة الأول، وكان فيها غيره من الصحابة، إلا أن ابن مسعود استأثر باهتمام أهل الكوفة، ومن ثم أثر فيهم بعلمه.

من التابعين: عامر بن شرحبيل الشعبي، والأسود بن يزيد، وعلقمة بن قيس النَّخَعِيّ، والقاضي شريح، وسعيد بن جبير، وغيرهم ممن أخذ العلم عن الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود.

- مَنْ كان من العلماء في البصرة:

كان في البصرة: أنس بن مالك، ابو موسى الأشعري وغيرهما من الصحابة رضوان الله عليهم.

ومِن التابعين: الحسن البصري، وقتادة، وأبو العالية، وابن سيرين، وغيرهم ممن أخذ العلم من الصحابة في البصرة.

- مَنْ كان من العلماء في مصر:

كان في مصر: الصحابي عبدالله بن عمرو بن العاص، وكان أكثر الناس حديثاً عن رسول الله ﷺ ويعدُّ أكثر الصحابة تعليماً بها.

وقد أخذ عنه من التابعتين الكثيرون، أمثال: جعفر بن ربيعة، ويزيد بن أبي حبيب، ومرثد بن عبدالله وغيرهم.

- مَنْ كان من العلماء في الشام:

من الصحابة: عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء.

ومن التابعين: مكحول، وأبو إدريس الخولاني، وعمر بن عبدالعزيز، وقبيصة ابن ذؤيب، والأوزاعي.

- مَنْ كان من العلماء في اليمن:

كان في اليمن من التابعين: مصرف بن مازن، وعبدالرزاق بن همام، وهشام بن يوسف، وغيرهم.

الأسباب المؤثرة في الحركة الفقهية في هذا العصر

هناك عدة أسباب كان لها أثر مباشر في سير وتجديد الحركة الفقهية والاجتهادية في عصر صغار الصحابة وكبار التابعين وهي:

❖ السبب الأول: شيوع رواية الحديث وانتشارها:

كان من أهم نتائج تفرق الصحابة في الأمصار، واختلافهم في العلم، واختصاص كل قطر بمحدثين، أن بعض الأمصار كان يشيع فيها من الحديث ما لا يشيع في أمصار أخرى، فلما ظهرت بعض الوقائع والمستجدات التي استدعت النظر في السنة التي تفصل مجمل القرآن، وتقيد مطلقه، وتخصص عمومه، اختلف الفقهاء في الفتوى والأحكام بحسب ما كان يشيع عندهم من حديث، وقد ظهر ذلك واضحاً جلياً في أهل المدينة وأهل الكوفة.

❖ السبب الثاني: ظهور الوضاعين:

تعد سنة أربعين من الهجرة الحد الفاصل بين صفاء السنة وخلوصها من الكذب والوضع، وبعد هذا التاريخ كثر الوضع كثرة مزعجة ومروعة بتصدع وحدة الأمة الإسلامية، وظهور الفرق الدينية، فاستباح الشيعة لأنفسهم أن يضعوا من الأحاديث ما يؤيد مذهبهم وكثرت بعد ذلك الأسباب الأخرى الحاملة على الوضع كما سيأتي.

hadeel alnafea

وقد استهان بعض الناس بالوضع حتى أباح قوم لأنفسهم أن ينسبوا لرسول الله ﷺ كلاماً هو حق فيما يرون، ولو كاف من كلام الفلاسفة، وقد وضعت الزنادقة أربعة آلاف حديث ليفسدوا على الناس دينهم.

وبالجملة: فإنه قد وجد نوع من الأحاديث لا تصح نسبتها إلى رسول الله ﷺ لأنها لا تتفق مع نطق الرسول ولا هديه، وساعد في ذلك كله عدم تدوين السنة تدويناً عاماً في شطر كبير من أوائل هذا العصر.

وهناك عدة أسباب دعت أصحاب الأهواء إلى الاجتراء على وضع الأحاديث والكذب على رسول الله ﷺ.

ونبين فيما يلي هذه الأسباب، وأثرها على الفقه، والجهود التي قام بها العلماء في مقاومة حركة الوضع في الحديث، وذلك في النقاط التالية:

(أولاً) الأسباب التي أدت إلى الوضع في الحديث:

من أهم هذه الأسباب ما يلي:

1) النزاع السياسي: وهذا ما حدث من بعض الفرق الدينية، كالشيعة والمرجئة، فالشيعة حرفت كثيراً من الأحاديث، ووضعت كثيراً منها كذباً بقصد تأييد منهجهم، وتحقيق أهدافهم، والمرجئة كذلك وضعوا الحديث ليتمشى مع مذهبهم.
2) العداوة الدينية: كان من أسباب الوقع العداوة للإسلام وأهله، وكان على رأس هذه العداوة من عرفوا بالزنادقة، الذين تستروا بالإسلام واندسوا بين المسلمين، فاشتغلوا بدس الأباطيل والأكاذيب، فوضعوا من الأحاديث ما يحقق أغراضهم، مثل (عبدالله بن سبأ) وأعوانه الذين تستروا بالإسلام وتذرعوا بإظهار حب آل البيت، فوضعوا الأحاديث الكاذبة، ومن هؤلاء -أيضاً- (عبدالكريم بن أبي العوجاء) الذي اعترف قبل أن تضرب عنقه بوضعه الحديث فقال: "والله لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال، وأحل فيها الحرام" وقد روى أن الزنادقة وضعت على رسول الله ﷺ اثنى عشر ألف حديث.
3) التعصب للجنس: وأكثر ما كان ذلك بين العرب والموالي فقامت كل طائفة بوضع أحاديث بقصد الرفع من شأنها، ومن ذلك ما وضعه الشعوبيون: "إن الله إذا غضب أنزل الوحي بالعربية، وإذا رضي أنزل الوحي بالفارسية" فردت عليهم طائفة من العرب بحديث موضوع: "أبغض الكلام إلى الله الفارسية، وكلام الشيطان الخوزية، وكلام أهل النار البخارية، وكلام أهل الجنة العربية".
4) القصص والوعظ: فقد ظهرت فئة من الناس تضع أحاديث تثير بها النفوس، فكانوا ينسجون القصص من خيالهم وينسبونها إلى النبي ﷺ ويبكون بها الناس، ولا يرون في ذلك إثماً ولا زوراً.
5) الترغيب والترهيب: فقد ظهرت فئة من الناس تفضل انشغال الناس بالآخرة، وترهبهم من الدنيا، فرأت أن تضع من الأحاديث ما يحبب الناس الآخرة ويصرفهم عن الدنيا، كذلك وضع بعضهم أحاديث في فضائل القرآن سورة سورة من باب الترغيب والترهيب.
6) التعصب المذهبي: قام بعض المتعصبين الجهلة من أتباع المذاهب الفقهية بوضع جملة من الأحاديث تؤيد المذهب الذي ينتمون إليه.
7) الوضع لأجل الخلفاء والسلاطين: ظهرت طائفة من الوضاعين يضعون للخلفاء والسلاطين ما يعجبهم من أحاديث؛ رغبة فيما في أيديهم.

هذه بعض الأسباب التي دفعت بالوضاعين إلى الوضع والكذب في الأحاديث.

وننبه إلى أن الوضع لم يكن مقصوراً على اختراع المتن، بل من الوضاعين من كان يضع للمتن الضعيف إسناداً صحيحاً مشهوراً، ومنهم من كان يقلب الأسانيد، أو يزيد فيها، وكان لهذا النوع المفترى من الأحاديث أثر على الفقه.

(ثانياً) أثر الوضع في الحديث على التشريع:

مع تفشى الوضع والكذب في الحديث تنبه الفقهاء إلى هذه الظاهرة التي كدرت عليهم صفو الأحاديث الصحيحة المروية عن النبي ﷺ وولدت لديهم الشك في كل ما يسمعونه من أحاديث، فرأى هؤلاء الفقهاء أن يضعوا جملة من الشروط والقيود لقبول الحديث والعمل به، ومع هذه الشروط والقيود المتعددة قلّ الأخذ بالحديث؛ فترتب على ذلك التوسع في العمل بالرأي فيما يستجد من وقائع، وبخاصة في الأقاليم التي قل فيها الأخذ بالحديث؛ كالكوفة والبصرة وما وراء النهر ومن هنا بدأت بذرة ظهور مدرستي أهل الحديث وأهل الرأي كما سنذكر فيما بعد.

(ثالثاً) جهود العلماء في مقاومة الوضاعين:

لم يقف العلماء موقفاً سلبياً إزاء الوضع في الحديث، بل جردوا أنفسهم لمقاومة الوضع والوضاعين، ولمقاومة هذا الداء الخبيث الذي يكذب على رسول الله ﷺ ويخلط الأحاديث الصحيحة بالأحاديث المكذوبة، فتصدوا للتمحيص والتنقيب وكشف الزائف، وإظهار الحق، ووضع القواعد العلمية التي تحدد معرفة الحديث الصحيح من الحديث الموضوع، وظهر ما يسمى بعلم (الجرح والتعديل) وقد أجهد أئمة هذا العلم أنفسهم وتعقبوا الوضاعين، وفضحوهم، وحذروا من كل واحد باسمه، ولم يقبلوا شيئاً مما حدثوا به، وبينوا الأغراض التي حملت الوضاعين على ذلك، حتى سلم الله الشريعة من كيدهم.

وقد اتخذ العلماء عدة طرق لمعرفة الحديث الموضوع والكشف عنه، سواء أكان الوضع من جهة المتن أم من جهة السن.

- فمن الطرق التي يعرف بها كون الحديث موضوعاً من جهة المتن:

أ- أن يناقض الحديث نص الكتاب والسنة والإجماع القطعي، مثل حديث: "إذا حدثتم عني بحديث يوافق الحق فخذوا به، حدثت به أو لم أحدث"، فإنه مخالف للحديث المتواتر: "من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار".

ب- ركاكة اللفظ في الحديث الموضوع، بحيث يدرى من له إلمام باللغة أن اللفظ غير فصيح ولا يتفق مع فصاحة النبي ﷺ.

ج- فساد المعنى، وذلك بأن يكون الحديث الموضوع مخالفاً لبديهات العقول، مثل حديث: "إن سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً وصلت عند المقام ركعتين" فهذا حديث مختلق موضوع.

- ومن الطرق التي يعرف بها كوف الحديث موضوعاً من جهة الإسناد:

أ- نسبة الحديث إلى سند لا يتفق مع الراوي.

ب- ما أقر واضعه بوضعه.

ج- اختلاف تواريخ أعمار الرواة في السند الواحد، كأن يذكر راوي الحديث أنه رواه عن شيخ ويتبين أن الراوي لا يتزامن مع الشيخ في تاريخي حياتهما.

لقد تتبع العلماء الأحاديث الموضوعة بالكشف والتحديد لمن قالها حتى ميزوا الأحاديث الصحيحة من الأحاديث المكذوبة، وما أحسن ما قاله ابن الجوزي في ذلك: "وما أحسن قول القائل: إذا رأيت الحديث يباين المعقول، أو يخالف المنقول، أو يناقض الأصول فأعلم أنه موضوع".

❖ السبب الثالث: تدوين السنة وحفظها في هذا العصر:

ذكرنا آنفاً أن النبي ﷺ نهي عن كتابة السنة، ثم أذن في كتابتها آخر الأمر، وأن عمر رضي الله عنه عزم على عدم كتابتها، وحجته في ذلك هو الخوف من ترك كتاب الله وانشغال المسلمين بالأحاديث، واستمر الأمر على ذلك إلى أن وقعت الفتنة، واستغل أعداء الإسلام والجهلة ذلك فوضعوا في الحديث وكذبوا على النبي ﷺ -كما ذكرنا- وعندها ظهرت الحاجة إلى تدوين السنة، وتمييز الأحاديث الصحيحة عن الأحاديث المكذوبة، ومن هنا ظهرت فكرة تدوين السنة.

وقد مر بنا أن عدداً قليلا من الصحابة دونوا بعض الأحاديث، وهي قليلة، وما كتب كان مجرد تدوين بعض الأحاديث دون مراعاة لموضوع معين أو تصنيف محدد.

وتكاد تجمع الروايات على أن أول من فكر في تدوين الحديث تدويناً عاماً تتبناه الدولة وترعاه هو الخليفة الراشد عمر بن

عبدالعزيز رضي الله عنه فقد كتب إلى عامله وقاضيه على المدينة أبي بكر محمد بن عمرو بن حز: "انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكتبه؛ فإني خفت دروس العلم، وذهاب العلماء"، كما كتب عمر عبدالعزيز إلى أهل الآفاق: "انظروا إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه" وقد كتب أبوبكر محمد بن حزم شيئاً من السنة مما كان في المدينة.

ثم جاء الإمام محمد بن شهاب الزهري (ت124هـ) وجمع الأحاديث ودونها، وإليه يرجع الفضل في تدوين السنة وحفظها حتى قيل فيه: لولا الزهري لضاع كثير من السنن وقد كان عمل الزهري في تدوين السنة عبارة عن جمع كل ما سمعه من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي رواها الصحابة، على غير تبويب ولا ترتيب على وفق أبواب العلم، ثم شاع بعد ذلك تدوين الحديث في الجيل الذي يلي جيل الإمام الزهري، وكان للأئمة جهود ومناهج فيه من حيث الترتيب والتبويب، إلى أن وصل إلينا على ما هو عليه اليوم.

❖ السبب الرابع: ظهور متعلمي الموالي واشتغالهم بالفقه:

كان أكثر حملة العلم في عصر الصحابة من العرب الخلص؛ لأن أكثر الصحابة عرب، وبعد أن فتح الله على المسلمين كثيراً من البلاد تفرق العلماء من الصحابة في هذه البلاد، وأخذوا يعلمون أهل هذه البلاد المفتوحة، واشترك العرب والعجم في طلب العلم، وعندئذ دخل الموالي في الحركة العلمية، وأقبلوا على العلم بحفظونه ويفهمونه، وساعدهم على الظهور والشهرة أن العرب وقتها شغلوا بالوظائف العامة؛ مما جعل الموالي ينهلون من العلم والاستزادة منه والتبحر فيه وبخاصة علم الفقه.

❖ السبب الخامس: نشأة المدارس العلمية والفقهية:

من المعلوم أن الصحابة تنوعت لديهم ثقافات علمية مختلفة فمنهم من اشتهر بقراءات القرآن الكريم، ومنهم من اشتهر بالسير والمغازي... إلخ وبعد أن تفرقوا في الأمصار تتلمذ على أيديهم الكثير من التابعين الذين نهجوا نهجهم، واشتهرت المدارس العلمية، وكان أبرزها مدرستي فقهيتين كانتا لهما الأثر في نمو الفقه الإسلامي وهما مدرسة الحديث بالحجاز، ومدرسة الرأي بالعراق، وسنتحدث عن هاتين المدرستين بالتفصيل فيما بعد.

hadeel alnafea